التجارة عند العرب ومجاوريهم

بقلم عيسى اسكندر المعلوف
صاحب مجلة الآثار ومؤلف تاريخ الامم الشرقية القديم

التجارة في زمن الامويين

ذهب بعض الكوفيين الى الهند متجرين واقاموا فيها وهم الذين سماهم الهنود باسم (الكوكل) تحريف (الكوفة) ولما ضرب الحجاج بن يوسف الثقفي على ايدي مناوئي بني مروان اجلى نفراً من قريش فذهبوا الى الهند بطريق البحر فسماهم اهلها باسم (التوائت) اي التوتية وانتشروا فيها وكانوا اساس الاسلامية في الهند

وكانت دمشق في عهد الامويين محطاً للتجارة ونازعت تدمر المدينة التجارية الكبرى شيئاً من مجدها حتى سقطت تدمر ونهضت دمشق . وكان اذينة زوج زنوبيا في اول امره اميراً على تدمر يحمي القوافل التجارية فساعد الرومان على الفرس فمنحه الرومان لقب (امبراطور الشرق) وقامت باعباء الملك بعد وفاته زوجتهُ زنوبيا ثم استقلت سنة ٢٧٣م اسرت الى رومية . ولا تزال الاطلال العظيمة القديمة في بترة بوادي موسى وتدمر في البادية وبعلبك في سورية شاهدة بتمو التجارة لانها كانت مواقف للقوافل وكثيراً ما كان التجار يتذرون من ارباحهم مايشيدون به الهياكل وينحتون التماثيل تبركاً وتفاؤلاً بالنجاح كما يظهر من الكتابات الباقية والرموز الماثلة ولاسيما في زمن الدولة الرومانية المشهورة بالتجارة

التجارة في زمن الدولة العباسية

لما اضطرب حبل بني امية في دمشق بنى المنصور بغداد عاصمة تجارية له لان العاصمة الاولى كانت الكوفة ثم الهاشمية ثم الانبار وكل من هذه العواصم لم يكن مركزاً تجارياً ففضل اتخاذ بغداد . ولما ارسل الرسل ليرتادوا عاصمة تجارية اختاروا محل بغداد قائلين لهُ « هنا تحيئك الميرة من المغرب وطرائف مصر والشام عن طريق الفرات وتحيئك في السفن من الصين والهند عن طريق دجلة . وتحيئك الميرة من الروم وآمد والجزيرة والموصل في دجلة . وتحيئك الميرة من ارمينيا فما فوقها عن طريق الزاب . وانت بين انهار لا يصل عدوٌ اليك الا على جسر او قنطرة . فاذا قطعت الجسر واخربت القناطر لا يصل اليك عدوك وهو محتاج الى عبور دجلة والفرات وهما خندقان طبيعيان لبلدة امير المؤمنين » فخططها المهندسون بالرماد وبناها

وسنة ١٥٧هـ (٧٧٤م) لما بنى المنصور بغداد جاءه رسول ملك الروم يهنئه ببنائها فارسل معه من أطافه بالمدينة حتى شاهد جميع هندستها واسوارها فلما عاد اليه قال له المنصور: «كيف رأيت هذا البناء؟» فقال الرسول: «بناء حسن وانما اعداؤك لا يبرحون معك». فقال المنصور: «ومن هم؟». قال له: «الاسواق لانه يجتمع بها من سائر الدنيا». فامر المنصور بأخراج الاسواق الى ناحية الكرخ وغيره بناحية مدينة السلام (الزدراء) لانحراف قبلتها

وهكذا بنيت بغداد مدينة تجارية للخلفاء العباسيين فارتقت بسياستهم وآدابها وعمرانها وكانت تجارة اوربة وروسية الى الهند بطريق بغداد الى ان نشأت تجارة العرب في الاندلس فنازعت الشرق وقضت على بغداد ولاسيما بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح وما بعده من الاكتشافات الجغرافية. فكانت بغداد مركز التجارة برّاً لتشابه القوافل التجارية من الشرق والغرب والشمال والجنوب حاملة اليها اهم السلع وحاصلات البلاد. وناقلة منها نتاج تلك البلاد وصناعاتها. وميناء البصرة مركز تجارة الشرق بحراً بل مرفأ العراق الوحيد يحمل منه التاجر كل ما هنالك من حاصلات الهند والبحرين والصين والعجم

وكانت الاشياء الثمينة في بغداد يتنافس فيها الباعة فان جوهريّاً في الكرخ ساومه يحيى البرمكي على سفطين الجوهر بمبلغ سبعة ملايين درهم وهو جزء مما في حانوته الغني فلم يبعه اياه

واشتهر (آل الجصاص) تجار العراق بالجوهرات الثمينة فكانوا من اكبر المتمولين في تلك الدولة. فلذلك صادرهم الخليفة المقتدر بالله العباسي لما اخفوا ابن المعتز عندهم فغرمهم بنحو ستة عشر مليون دينار. وذكر ابن الاثير تاجراً اسمه الشريف عمر كان دخله السنوي مليونين وخمس مائة الف درهم. وكانت ثروة احد تجار المراكب في البصرة عشرين مليون دينار

وكان دخل احمد بن عمار كل يوم الف دينار يخرج منه صدقة كل يوم مائة دينار

وكان الخليفة العباسي يهدّد اهل الهند اذا قفلوا باب التجارة في وجه تجار بغداد والشام

وقال الفضل بن يحيى البرمكي: «الناس اربع طبقات. ملوك قدمهم الاستحقاق. ووزراء فضلتهم الفطنة والرأي. وعلية انهضهم اليسار. وأواسط الحقهم بهم التأدب»

وكان كثيرون يطوفون البلدان للتجارة. قال المقري في نفح الطيب (٢: ٨٢): «ان علي بن بغداد من سلالة يحيى البرمكي قدم الاندلس تاجراً سنة ٣٣٧هـ (٩٤٨م)»

وكثر السيّاح والروّاد للتجارة في اعصر مختلفة حتى نسب كثيرون اكتشاف اميركا الى سياح العرب قبل كولمبوس ولا سيما الاخوة المغرورين (مغروريم) الاندلسيين الذين ركبوا البحر الكبير وازهرت تجارة الاندلس فنازعت الشرق واشتدت المنافسة بينهما

فبعد ان كانت البضائع بين القرنين الثامن والحادي عشر تنقل من المدن الاسلامية

الشرقية الى اوربا الشمالية بطريق نهر الفولغا Volga لخليج فنلنده فبريطانيا الى مدن اوربا تحولت في القرن الحادي عشر الى منطقة البحر الروسي المعروف بالتوسط فاشتهرت بنقلها مدن ايطاليا الى اوربا بطريق البندقية وجنوى

وبهذه الاتصالات الدائمة في التجارة امتزجت الامم بعضها ببعض فجاء من اوربا كثيرون من التجار بأسرهم الى بلادنا وتديّروها كما سار من وطنينا تجار وصناع الى تلك البلدان فسكنوها وتكاثروا فيها ولا تزال اثناء الفريقين ظاهرة في بقاياهم الى يومنا . قال ابن فضلان الرحالة : « ان بلغار روسيا كانوا يكرمون وفادة التجار المسلمين عليهم الى حد انهم كانوا عند استقبالهم ينثرون الدراهم تحت اقدامهم اشارة الى التأهيل والترحيب بهم ويبتهجون بقدومهم ابتهاجاً عظيماً » — الى غير ذلك من الاقوال والاخبار

التجارة بين الاسلام والصليبيين

في اثناء الحروب الصليبية جاء تجار الفرنج وشيدوا الفنادق وأنشأوا المتابات (البورصات) للبحث في شؤون التجارة وحملوا البضائع الشرقية الى بلادهم كما نقلوا بضائع بلادهم الى بلادنا . ولما ساعدهم البنادقة في بعض حروبهم صار لهم الحق بحرية التجارة في هذه البلاد من دون دفع مكوس ولاسيما في مدينة صور وأخذوا ثلث التاجر . وكانت حلب ودمشق اذ ذاك قد اشتهرتا بمستودعاتهما التجارية كما اشتهرت بيروت وطرابلس وعكا وصور من الثغور السورية . وكانت عكا مشهورة بتجارها الموصليين الحاملين اليها النفيس من بضائعهم كالآنية النحاسية المنقوشة والانسجة المنسوبة اليهم (الموصلينا) والطاقس العجمية والمنسوجات البغدادية مما روّج الصناعات . وصك النقود وانشاء المكاكس (الجمارك) وعقد المعاهدات ونحو ذلك من الحسنات الاقتصادية

وأعتنى ملوك القدس من الافرنج بترويج تجارة البلاد وتوثيق عرى الاتصال بينها وبين اوربا ولا سيما ايطاليا وبينها وبين الشرقين الادنى والاقصى فراجت سوق السفن البحرية والقوافل البرية . وذاع فن التجارة ومال اليه الكثيرون فاتقنوه وربحوا الاموال الطائلة وجمعوا الثروات العظيمة . وذلك في اثناء الحروب الصليبية وانتشاب المواقع الدامية. فكان تجار اوربا يحملون من بلادنا القطن والصوف من تاج البلاد والكتان والحرير والزعفران والنيلة والسكر والفوة والاشنان وغيرها

وكانت لهم المتابات (محلات يختلفون اليها اشبه بالبورصات الآن) والمخازن والفنادق للتداول بالشؤون التجارية ولخزن البضائع ولنزول المسافرين

وهكذا كان تجار المسلمين يقيمون في اماكن خاصة فيشترون ويبيعون ويعودون الى

اوطانهم بدون معارضة لتساهل ملوك المتجارين وقواد جيوشهم بذلك اتماء للثروة وانعاشاً للبلاد المضطربة بالحروب . وكانت للفريقين مماكس (جمارك) وضرائب ومكوس بكل ضبط ودقة . وصكوا النقود في انطاكيا وطرابلس وصور وعكا على الطراز البزنطي ثم اتخذوا لها شعاراً مسيحيًّا وعرف منها الدينار الصوري ضرب البنادقة

التجارة عند المتأخرين

ما زالت التجارة متوثقة العرى بين امم اوربة والشرق ولاسيما في الجزر الايطالية واليونانية فامتدَّ التجار المسلمون في كثير من البلدان الشرقية والغربية وعقدت المعاهدات التجارية وانشئت المصارف (البنوك) والغرف التجارية والمدارس والمحلات الكبرى والقوائم النقدية وسهلت طرق النقل بحراً وبرًّا ولاسيما بعد الاكتشافات الاخيرة كرأس الرجاء الصالح . وكان البرتغاليون ينافسون تجار العرب في المحيط الهندي ويعاملونهم بقسوة وعنف. فبعد ان كانت اقرب طريق وآمنها لتجارة الهند طريق وادي الفرات او طريق البحر الاحمر الى شبه جزيرة العرب صار طريق الرجاء الصالح اهم منها فكانت دمشق مدينة تجارية عظيمة منذ القديم وتجارها مشهورون بحسن المعاملة وعلاقتها مع بغداد بالقوافل قروَّجت بذلك صناعاتها المتقنة وتجارتها الواسعة وبنى بعض التجار كثيراً من مدارسها الشهيرة باموالهم ووقفوا لها العقارات

وكانت حلب اهم مدينة تجارية في آسية الصغرى لانها ملتقى قوافل كردستان وما بين النهرين وناحية العجم الغربية وعلى مقربة منها اسكل الاسكندرونة واللاذقية وطرابلس وكانت اول علاقاتها باوربة في القرن السادس عشر حين اسس البنادقة بيتاً تجاريًّا فيها ثم خلفهم الفرنسيون فالانكليزيون . وقال بعضهم ان عدد المستعمرين البندقيين في حلب سنة ١٦٠٣ م كان اربع عشرة اسرة وبلغ تجارتهم مليوناً ونصفاً من الدوكات الذهبية

وكان عدد الاسر الافرنسية خمساً مع ان عدد التجار الافرنسيين الذين يختلفون الى حلب كان اوفر من عدد البنادقة وبلغت قيمة التجارة الافرنسية ثمانمائة الف من الدوكات الذهبية

وكانت اسر الانكليز قليلة وكانت تجارتهم تبلغ قيمتها ثلاثمائة الف من الدوكات

وفي القرن الثامن عشر تغلبت التجارة الفرنسية والانكليزية على التجارة البندقية حتى اذا عرفت طريق رأس الرجاء الصالح تحولت التجارة عن حلب الى تلك الجهات ولما فتحت طريق ترعة السويس خسرت حلب مقامها التجاري فسقطت البيوت التجارية الكبرى فيها

اما الثغور البحرية فعززتها التجارة وانشئت فيها المخازن والفنادق والبيوت وكان اهمها طرابلس وبيروت وصيدا وعكا. وفي عهد الامير فخر الدين الثاني المعني الكبير (١٥٩٥—

١٦٣٥ م) عظم شأن التجارة واتسع نطاقها فعقد المعاهدات وسهّل للتجار طرق النقل وترويج البضائع ونتاج البلاد ولا سيما الحرير والقطن كما فصّلتُ ذلك في تاريخه المنشور في مجلتي الآثار في سنواتها الثلاث قبل الحرب من سنة (١٩١١—١٩١٤) وفي تاريخه المطوّل (الذي بثثتهُ للطبع وفصّلتُ فيه الشؤون التجارية تفصيلاً وافياً)

وخلاصة ما في هذا العهد ان تجار الافرنج كانوا يجتمعون في محل واحد ولهم قناصل وتراجمة وكهنة فيشحنون من نتاج بلادنا الكتان والقطن والحرير ومن منسوجاتها الاقمشة الدمشقية والحلبية وغيرها. وكان اهم التجار الايطاليين من جنوه وبيزه والبندقية. ومقر قناصلهم العامة في عكا ثم في الاساكل والمدن الاخرى. فكانت القوافل والسفن تسير في البلدان بالبضائع والحاصلات وغيرها مما يُتّجر به. وكثيراً ما كان القرصان في البحر واللصوص في البر يهاجمون ويستولون على ما تحمله. فوضعت الحفارة واتدب لادارتها بعض الاسر النافذة الكلمة. وكثيراً ما كان الولاة والحكام يحتكرون الاصناف ويبيعونها ولكن الامير فخر الدين المعني عقد معاهدات مع البادقة وسهّل لهم التجارة فراجت أسواقها وكان يساعدهم فاحبوهُ واقترض منهم اموالاً امدّوهُ بها. اما خصيمهُ يوسف باشا سيفا حاكم طرابلس الشام فكان يعتدي على التجار ويسومهم الوان العذاب بالضرائب واخذ بضائعهم والتضييق عليهم فكرهوهُ. ونجحت بيروت مقر المعني ومايجاورها كصيدا وصور

ولقد وصف كثير من رحّالة الافرنج وسيّاحهم تجارة الشرق بكتبهم باللغات الاجنبية ومن هذه الرحلات المتأخرة رحلة عربية العبارة اعجمية الاسلوب من مخطوطات خزانتي وهي لراهب جاء الشرق سنة ١٧٠٠ م فطاف بلاد مصر والارض المقدسة وجبل لبنان واستنبول واسكلات الشرق باحثاً في قدم البلدان ومتاجرها في ٢٢٠ صفحة مخطوطة بقطع نحو صغير وصف فيها تجارة بلاد العرب ومصر واساكل فلسطين وسورية وبلاد آسية الصغرى والاستانة فقال عن تجارة عكا ما محصله: « يوجد فيها خان كبير جديد بغرف كثيرة يقطنها عشرون تاجراً افرنسيًّا مع قنصل وكيل وماوى للارض المقدسة فيه ثلاثة رهبان. يتجرون بالقطن والقلّ والاسنان والشمع ». وقال عن تجارة صيدا ما محصلهُ ايضاً: « فيها خان كبير حسن جدًّا فيه اكثر من ثلاثين تاجراً افرنسيًّا لهم فيه مخازن كافية للاتجار بالقطن والحرير والقلّ وبضائع اخرى وبنا هذه المدينة مضطرب لاترسو فيه السفن الاّ في الفصل الجيد من السنة. وعند اضطراب البحر فيه تذهب السفن الى صور . . . »

وهكذا كانت التجارة تتقلب بها الايام الى ان فتحت ترعة السويس سنة ١٨٦٩ فتحولت التجارة عن المدن الشرقية الى مصر وافريقية واختصرت طرقها كثيراً